المحاضرة التاسعة: الخطاب ومناهج التحليل: التحليل اللساني .

نستهل اليوم محاضرتنا التاسعة باستكمال الغوص في عالم الخطاب، هذا النسيج اللغوي المركب الذي يتجاوز حدود الجملة الواحدة ليصبح حاملًا للمعنى الاجتماعي والثقافي. فبعد أن استعرضنا مفهومه العام، تتجه الأنظار اليوم نحو الأدوات المنهجية التي تمكننا من تفكيكه وفهم آلياته العميقة. وفي هذا السياق، سنركز تحديدًا على **التحليل اللساني**، بوصفه المنهج الأساس الذي يتخذ من البنية اللغوية للخطاب نقطة انطلاق لفهم كيفية بناء الرسائل وتأثيرها. إذًا، كيف يمكن للمفاهيم اللسانية الكبرى أن تضيء لنا الطرق لفهم آليات إنتاج الخطاب وتأويله؟

إن الخطاب (Discourse) ليس مجرد جملة أو نص، بل هو الاستعمال الفعلي للغة في سياق اجتماعي وتواصلي محدد، وهو ما يتفق مع رأي فان دايك الذي يرى أنَّ الخطاب هو "وحدة لغوية تتجاوز حدود الجملة" (من كتابه *النص والسياق*). أما التحليل(Analysis) ، فهو عملية تفكيك هذا الخطاب إلى عناصره الأساسية للكشف عن بنيته وقصده ووظيفته الخفية. اليوم، سنركز على تطبيق الأدوات اللسانية لفهم الخطاب، وذلك عبر محاور تشمل: نشأة الخطاب، ومستويات التحليل اللساني، ودور البراغماتية في فك رموزه.

مقدمة إلى دراسات الخطاب: النشأة والمقومات الأساسية

تعود نشأة دراسات الخطاب إلى جذور معرفية عميقة ومتشابكة. من ناحية، ساهمت الفلسفة—لا سيما فلسفة اللغة العادية—في توجيه الاهتمام نحو البعد الإنجازي للغة. في هذا الصدد، يوضح جون أوستن(John L. Austin) ، رائد نظرية أفعال الكلام، أنَّ "قول شيء ما هو دائمًا فعل لشيء ما" (من كتابه *كيف ننجز الأشياء بالكلمات* - *How to Do Things with Words*). من ناحية أخرى، أسست السيميائيات (علم العلامات)، كما صاغها رولان بارت(Roland Barthes) ، لفكرة أن الخطاب هو نظام من العلامات الثقافية والاجتماعية التي تحمل دلالات عميقة، حيث يؤكد: "لا يوجد سوى خطاب واحد في العالم، وهو خطاب القوة" (من كتابه *أسطوريات* - *Mythologies*). وفي المقابل، قدم علم الاجتماع مدخلاً لفهم الخطاب بصفته نتاجًا للتفاعل الاجتماعي والسياق المؤسسي.

يتميز الخطاب (Discourse) بعدة خصائص أساسية تميزه عن الجملة اللغوية. أولاً، الخطاب يتجاوز حدود الجملة، حيث يركز على وحدة لغوية كبرى متماسكة ومنظمة. ويُشدد تيون فان دايك (Teun A. van Dijk)، أحد أهم منظري تحليل الخطاب، على هذا الجانب بقوله: "الخطاب هو وحدة لغوية تتجاوز حدود الجملة، وهو مفهوم يشتمل على السياق والاستعمال الاجتماعي للغة" (من كتابه : *النص والسياق* .(*Text and Context* - ثانيًا، الخطاب سياقي(Contextual) ، أي لا يُفهم إلا من خلال الظروف المحيطة بإنتاجه وتلقيه. ثالثًا، الخطاب فعلي أو إنجازي(Pragmatic) ، فهو في جوهره فعل يُنجز به المتحدث شيئًا ما، مما يجعله ممارسة اجتماعية حية وذات قصد.

مناهج تحليل الخطاب الكبرى وموقع التحليل اللساني

إن دراسة الخطاب لا تقتصر على منهج واحد، بل تستند إلى مناهج تحليل كبرى تركز على العلاقة بين اللغة والسلطة والمجتمع. من أبرز هذه المناهج التحليل النقدي للخطاب(CDA) ، الذي لا يكتفي بوصف البنى اللغوية، بل يركز على الكشف عن علاقات الهيمنة والأيديولوجيا المستترة. في هذا الصدد، يؤكد نورمان فيركلاف(Norman Fairclough) ، أحد رواد هذا المنهج، على أهميته بقوله: "إن التحليل النقدي للخطاب هو تحليل للخطاب بوصفه ممارسة اجتماعية" (من كتابه :*اللغة والسلطة* .(*Language and Power* - وهناك أيضاً التحليل الاجتماعي للخطاب، الذي يركز على كيفية إنتاج الخطاب وتلقيه وتداوله داخل المؤسسات والمجتمعات المحددة.

على الرغم من اختلاف أهداف هذه المناهج، فإن التحليل اللساني يمثل أداة أساسية ومركزية لها جميعاً. إن موقعه ليس مجرد منهج مستقل، بل هو بمثابة العمود الفقري الإجرائي الذي يوفر العدة اللازمة للوصول إلى التحليل الأعمق. فالمنهج النقدي، على سبيل المثال، لا يمكنه الكشف عن الهيمنة إلا من خلال فحص الخيارات اللغوية الدقيقة (المعجم، التراكيب، الضمائر) التي تدرسها اللسانيات. ويؤكد هذا الدور الأساسي أ. ج. جرماس(A. J. Greimas) ، أحد رواد التحليل السردي والسيميائي، على أهمية البنية اللسانية بقوله: "لا توجد دلالة خارج النص، ولا يوجد معنى إلا من خلال اللغة" (مستخلصة من أعماله في *السيميائيات البنيوية* .(*Structural Semiotics* - بعبارة

أخرى، التحليل اللساني هو الخطوة المنهجية الأولى التي تسمح بتفكيك الخطاب على مستوى اللغة قبل ربطه بالقضايا الاجتماعية أو الأيديولوجية الكبرى.

المستويات اللسانية في تحليل الخطاب

إن صميم التحليل اللساني للخطاب يكمن في تطبيق المستويات التقليدية للغة على بنية الخطاب بأكمله، بدلاً من مجرد الجملة. وهذا يكشف عن كيفية بناء المعنى والقصد على نطاق أوسع.

التحليل الصوتي والصرفي

يشمل هذا المستوى دراسة الوحدات اللغوية الدنيا. يهتم التحليل الصوتي (Phonology) بكيفية استخدام النبرة، والتنغيم، والجهارة (Voice Quality) في الخطاب الشفوي للتأثير على المتلقي أو إبراز أجزاء معينة. بينما يركز التحليل الصرفي (Morphology) على بنية الكلمات ووظائفها النحوية. تكمن أهمية هذا المستوى في تحديد الأساليب الإقناعية أو التعبيرية؛ ففي بعض الخطابات (مثل الخطب السياسية أو الشعر)، قد يكون اختيار تفعيلة أو نبرة معينة أو صيغة صرفية بعينها أمراً محورياً لإيصال الرسالة العاطفية أو الأيديولوجية.

التحليل المعجمي والدلالي

يُعد هذا المستوى من أهم أدوات التحليل اللساني للخطاب. يهتم التحليل المعجمي (Lexical Analysis)باختيار المفردات بعناية، مثل تحديد ما إذا كانت الكلمات المستخدمة رسمية، أو عامية، أو تقنية، وما إذا كانت تحمل دلالات إيجابية أو سلبية (كشف القصد). أما التحليل الدلالي (Semantic Analysis)فيركز على الحقول الدلالية التي يغطيها الخطاب (مثل حقل الحرب، حقل الاقتصاد، حقل الأسرة) لكشف الأفكار المهيمنة. كما يدرس الاستعارات (Metaphors) والتشبيهات؛ إذ يقول جورج لاكوف ومارك جونسون :(George Lakoff & Mark Johnson) "إن جوهر الاستعارة هو فهم وتجربة شيء ما بدلالة شيء آخر" (من كتابهما *الاستعارات التي نعيش بها* - *Metaphors We Live By*) ، وهذا يُظهر كيف يُبنى الإدراك عبر اللغة.

التحليل التركيبي والنحوي

يتناول هذا المستوى تنظيم الجمل وعلاقتها ببعضها البعض ضمن النص. يدرس التحليل التركيبي (Syntactic Analysis)بنية الجملة (مثل استخدام المبني للمجهول للإخفاء الفاعل، أو كثرة الجمل الاستفهامية)، ويهدف إلى كشف كيفية تنظيم المعلومات وتركيز المسؤولية أو نفيها. كما يُسلط الضوء على آليات التماسك النصي(Cohesion) ، وهي الروابط اللغوية التي تحقق الترابط الشكلي بين الجمل والفقرات (مثل حروف العطف وأدوات الربط). وأخيراً، تُعد الإحالة (Reference) جزءاً حيوياً من هذا التحليل، وهي استخدام الضمائر أو أسماء الإشارة للرجوع إلى عناصر مذكورة سابقاً في الخطاب، مما يساهم في إحكام بناء النص وتدفقه.

ما وراء اللسانيات: البراغماتية والسياق

تُعتبر البراغماتية (Pragmatics) الجسر المعرفي الحيوي الذي يربط بين البنية اللسانية المجردة والسياق الاجتماعي الفعلي للخطاب. دورها الأساسي هو تجاوز المعنى الحرفي (الدلالي) للجملة للوصول إلى المعنى المقصود (الإنجازي) للمتحدث. يبرز هذا الدور من خلال تحليل أفعال الكلام (Speech Acts)، حيث يُنظر إلى الخطاب ليس كأقوال فحسب، بل كأفعال يتم إنجازها بواسطة اللغة، مثل الوعد ("أعدك أن أفعل كذا")، أو الأمر ("أغلق الباب")، أو الإخبار ("السماء صافية"). إن فهم الخطاب في النهاية يتوقف على تحديد القوة الإنجازية الكامنة وراء الكلمات، وهي القوة التي تدرسها البراغماتية.

لا يمكن تحديد القصد الحقيقي للخطاب إلا بالإحالة إلى السياق (Context) المحيط به، وهذا ما تُشدد عليه البراغماتية. إن السياق ليس مجرد خلفية، بل هو مجموعة من العوامل الحيوية التي توجه عملية التأويل والفهم. يشمل السياق المقام(Setting) ، أي الزمان والمكان؛ والمشاركين (Participants)، أي طبيعة العلاقة الاجتماعية والسلطوية بين المتحدث والمتلقي؛ والمعرفة المشتركة (Shared Knowledge) بينهما. على سبيل المثال، عبارة "الجو حار هنا" قد تكون مجرد إخبار، ولكن في سياق معين (كوجود ضيف في غرفة مغلقة)، يصبح الفعل الإنجازي الحقيقي هو طلب فتح النافذة، وهذا القصد لا يُفهم من الجملة اللسانية وحدها، بل من تفاعل اللغة مع السياق.